معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 16/ العدد 2 (ديسمبر2021): ص.ص: 968-987

الزاوية والدولة الحديثة في المجال المغاربي-قراءة تحليلية مقارنة لطبيعة العلاقة بين الزاوية والدولة في الجزائر والمغرب-

The "zawiya" and the modern state in Maghreban space-analytical and comparative reading on the nature of the relationship between the "Zawiya" and the state in Algeria and Morocco

ط.د. رزيق حميشي[1] * أ. د. عبد العزيز راسمال[2]

[1]كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، razik.hamichi@univ-alger2.dz

[2] كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر2، الجزائر، abdelaziz.rasmal@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2021/05/27؛ تاريخ القبول: 2021/10/26؛ تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

أحدثت الزوايا والطرق الصوفية تحولا جذريا في الخريطة الدينية للمجتمع المغاربي، بعدما ارتبط الإسلام فقط بالمجال الحضري، تسربت القيم الدينية الإسلامية تدريجيا بفضل الانتشار الواسع لهذه المؤسسات الدينية في المجال القبلي عن طريق الأولياء والصلحاء والأشياخ والمتصوفة، ليصبح الإسلام بمثابة منظومة شاملة ومتكاملة للمجالين الحضري والقبلي على السواء.

لم تكن الأدوار التي تضطلع لها الزاوية داخل المجتمع مجرد أدوار ليس لها خلفيتها التاريخية، إذ تحكمت الكرامات عبر التاريخ بالزوايا مكنت هذه الأخيرة من كسب الرأسمال الرمزي و المادي جعلتها تظهر بمثابة المنافس المحلي والجهوي للسلطة المركزية، والبروز كقوة هدفها تحقيق التوازن الاجتماعي وتغطية العجز الذي لم تتمكن

* المؤلف المرسل.

السلطة المركزية من تأمينه.

ولفهم المجال الذي تؤطره الزاوية يستوجب الرجوع إلى طرح علاقتها كتنظيم ديني/ سياسي بالمجال القبلي الذي كانت تنشط فيه وتؤطره، إذ لم تكتف بكيانها الديني الرمزي وإنما تجاوزته لخوض غمار التجربة السياسية في إعادة هيكلة بنية القبيلة المغاربية اجتماعيا وسياسيا. لتصبح بذلك الزاوية تنظيما قائما بذاته له بنيته وعقلانيته الخاصة به أيضا.

كلمات مفتاحية: الزاوية، حركة الصلحاء، السلطة المركزية، المؤسسة الدينية، الصراع الديني والرمزي.

Abstract:

The “zawaya“ and Sufi brotherhood have brought about a radical transformation in religious structure of Maghreban society. Islam, after being linked to the urban sphere, its values have been gradually expanded through the expansion of its religious institutions in tribal space by the saints, marabouts, cheiks, and mystics. From here, Islam becomes a comprehensive integrated system for urban and tribal space.

The roles of "Zawayas" in society have its own historical background, because it was always regulated by miracles, that it has also made possible the accumulation of symbolic capital, and make it as local and regional rival capable of maintaining the social equilibrium.

The relationship between "Zawayas" as politico-religious organizations and tribe provides better understanding of the space that it frames. The "Zawayas" are not just limited to their religious and symbolic entity, but their aim is to play a political role, and to reorganize the structure of the Maghreban tribe socially and politically.

Keywords: The Zawayas; the Maraboutism; central authority; religious institution; religious and symbolic struggle.

المقدمة:

ارتبط إشعاع الزوايا ونموها في تاريخ المغرب الكبير بمدى قدرة الولي le saint أو الصالح le marabout في إثبات حضوره، إذ شكلت مؤسسة الزاوية لنفسها مجالا خاصا في النسيج الديني والاقتصادي والسياسي للمجتمع المغاربي. و لقد ارتبط وضع الزوايا بالظروف التي تأسست من خلالها و قدرات زعيمها ونوعية العلاقات التي تجمعه بالسلطة المركزية. وبدورها ساهمت كمؤسسات دينية جماهيرية في إدماج روحانية القيم الدينية بالممارسات التقليدية المستمدة من الدين الطبيعي للمجتمع المغاربي، وأنتجت أنماط سلوكية جديدة مزجت بين الإسلام كشريعة وإسلام المتصوفة، وأصبح الشعور الديني لدى الأفراد والجماعات بموجب ذلك الامتزاج يتأرجح بين إسلام العلماء والفقهاء وإسلام الجماهير المتجسد في مؤسسة الزاوية.

وقد ظلت القداسة مرتبطة أساسا بمؤسسة الزاوية رغم أنها من الظواهر السابقة تاريخيا في المغرب الكبير، إذ احتضنتها الزاوية منذ البداية لتصبح الوجه المؤسسي لها، وامتزجت القداسة والزاوية والشرف والبركة بأبعاد مختلفة لظاهرة مغاربية دينية واجتماعية وثقافية وسياسية بمعناها السوسيولوجي والأنثروبولوجي الواسع.

يتجه الكثير من الباحثين في علوم الإنسان والمجتمع إلى تسمية تاريخ المغرب "بتاريخ الزوايا".[1] ولا يراد من هذا اللقب إلا إبراز الأدوار الحاسمة الاجتماعية والسياسية التي لعبتها هذه المؤسسات الدينية في تشكيل تاريخ المغرب، ولقد كان رجالات التصوف المغاربة فاعلين دينيين واجتماعيين وسياسيين في نفس الوقت لأنهم كانوا دائما في قلب المجتمع ، لتوجيه سياسات الدولة وثقافتها وتشكيل هويتها.

(1) ذهب في هذا الطرح معظم المهتمين بالتاريخ الديني والممارسات الدينية للمغرب الإسلامي الأجانب منهم كغيلنر وبيرك و ايكلمان وبيلير والوطنيين كالعروي وعبد الله حمودي والزاهي وآخرون ، نظرا للديناميكية الدينية و الاجتماعية والسياسية للزوايا بعد القرن 15م والتي طغت على المشهد التاريخي للمنطقة، خصوصا من حيث انتشارها الواسع في القبائل أو من حيث تطور علاقتها مع السلطة المركزية.

ومن خلال ما سبق يمكن طرح التساؤلات التالية:

- لماذا ارتبط تأسيس الزوايا تاريخيا بالمجال القروي أكثر منه في ذلك من المجال الحضري؟

- ما هي الخصوصيات الاجتماعية والثقافية والمعتقدية التي يمتاز بها المجال القروي عن نظيره الحضري ما مكن من الأول احتضان ظاهرة الزوايا بجميع تمثلاتها أكثر من الثاني؟

- ما هي التجليات الجديدة لمؤسسة الزاوية في ظل المجتمع الحديث؟ وهل يمكن الحديث عن انحصار مجال الزاوية الرمزي والمادي؟

1.حركة الصلاح من التأسيس إلى المأسسة:

1.1. الزوايا والظروف التاريخية للتأسيس:

ظهرت الزوايا في تاريخ المغرب الإسلامي كمراكز دينية وعلمية بعد الرباط، وكلمة الرباط لغة من رابط يرابط بمعنى أقام ولازم المكان، وفي اصطلاح الصوفية يطلق على شيئين: أولهما البقعة التي يجتمع فيها المجاهدون لحراسة البلاد ورد الهجمات التي يقوم بها العدو.[1] والثاني هو المكان الذي يلتقي فيه المؤمنون الصالحون لعبادة الله وذكره والتفقه في أمور الدين.

لقد غلب الجانب الحربي في الرباط على الجانب التربوي، والزاوية مكان للتعبد وتلاوة القرآن وذكر الله لتطهير النفس وتهذيبها.وقد عرف التصوف المغاربي منذ القرون الهجرية الأولى تحولات عميقة، وكان أبرزها انصهاره في الإيديولوجية الشريفية، وأصبح في الكثير من الأحيان مرادفا لتبجيل الرسول وآل البيت.

(1)القاسم الحادك، **الزوايا والطرق الصوفية في المغرب، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية**، ع1، جامعة الوادي، سبتمبر 2013، ص 60.

غير أنه ما يميز مؤسسات التصوف في المغرب الإسلامي هو الموقع الاجتماعي المركزي الذي عزز جانب الشرفاء فيه،و تواجدهم في قلب الحركة الصوفية خاصة عبر تعاليم المدرسة الشاذلية الجزولية التي انتسبت إليها جل الطرق والزوايا المغاربية.

ومن المعروف أن مضمون التصوف الشاذلي الجزولي يتمحور حول تبجيل وتعظيم الرسول وذريته، ما يجعل من هذا التصوف شريفي استنادا إلى مؤسسيه، ويظهر ذلك جليا في هيمنة الشرفاء والإيديولوجية الشريفية على أكبر الطرق الصوفية تأثيرا في المجتمع كالوزانية و الدرقاوية في أواخر القرن الثامن عشر.[1]

وقد تعددت العوامل التي كانت وراء هذا التحول الهام والكبير والذي تم في الواقع عبر قرون عديدة، تداخلت فيها مختلف المعطيات التاريخية، ولكن يمكن التمييز من بين كل العوامل عاملين أساسيين كان لهما الأثر الكبير والنصيب الوافر في هذا التحول:[2]

يتمثل **العامل الأول** في التطور الحاصل على الفكر الصوفي عموما، سواء بالمغرب الإسلامي أو بالمشرق، فبعدما كان المتصوفة الأوائل يركزون اهتمامهم وهمهم الوحيد هو التقرب إلى الله، أصبح الصوفية يميلون إلى التركيز على نموذج الإنسان الكامل كما يتجلى في شخص النبي محمد، وبالتالي فإن هذا المنهج الجديد الذي أتى به المتصوفة جعل التقرب من الرسول هدفا لا يقل من التقرب إلى الخالق. أما **العامل الثاني** فيعلق مباشرة بالأوضاع الاجتماعية والسياسية التي كان يعيشها المغرب منذ العهد المريني، وخاصة العجز السياسي والتفريط في أمور الجهاد وسقوط عدة مدن مغربية تحت الاحتلال كمدينة سبتة (1415)، وسقوط ما تبقى من الأندلس (1492).

إن هذا الارتباط الوثيق الذي أصبح يربط التصوف المغربي والشريفية لم يكن إلا نتاج لهذه العوامل الاجتماعية والسياسية التي عرفها تاريخ المغرب الإسلامي منذ العهد المريني.

ويرى المؤرخ المغربي محمد المنصور أن هذه العوامل هيأت الأرضية الملائمة لتلاحم

(1)محمد المنصور، **المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين (1792-1822)**، تر، محمد حبيدة، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006، ص ص 259-260.

(2)نفس المرجع السابق، ص ص 265-266.

الإيديولوجية الصوفية والشريفية إلى درجة أصبح معها من الصعب التمييز بينهما، خاصة بفضل الدور القيادي البارز الذي لعبه الشرفاء أثناء قيادتهم الحركات الجهادية ضد الغزاة الإيبيرين، مما زاد من أهميتهم وشعبيتهم في الأوساط الاجتماعية المغاربية، ولقد تجسد التلاحم والانصهار الكبيرين بالنسبة للإيديولوجيتين بشكل جلي في التصوف الشاذلي الجزولي الذي أصبح يدور في تبجيل الرسول وآل البيت.[1]

2.1. دور الزوايا السياسي:

يرى الأنثروبولوجي المغربي نور الدين الزاهي أن الزوايا لم تكن تتسم بالطابع السياسي، لأنها كانت في البداية عبارة عن أماكن للعبادة والزهد، وكانت كذلك أماكن للضيافة والكرامة. ولكن مع نهاية الدولة الوطاسية وقيام الدولة السعدية، كانت البداية الرسمية لدخول الزاوية في النشاط السياسي وهذا يرجع إلى عدة أسباب أهمها امتداد أطماع الإيبيرين على المغرب الإسلامي بعد هزيمة المسلمين بالأندلس، وعجز السلطة المركزية في مواجهة هذه الأطماع بالجدية والصرامة، وتقاعسها عن الجهاد وحماية الأوطان.[2]

قامت هذه المؤسسات الدينية بالدعوة إلى الجهاد والتعبئة العامة، وقد وجد هذا النداء صدى كبير في الأوساط الاجتماعية المغاربية، ولقي استجابة جماهيرية واسعة بحمل السلاح من اجل الدفاع عن الوطن، بالمقابل ضعف دور السلطة المركزية، ما ساعد في علو شأن الصلحاء وشيوخ الزوايا الذين زاد احترامهم وتقديرهم من الفئات الشعبية التي ترى في هؤلاء قوة روحية يتوجب الاستناد إليها، هذا ما جعل شيوخ الزوايا يكرسون هذا الاعتقاد بسن طرق لزواياهم، ما زاد من قوة نفوذهم وما أهلهم للوصول إلى القيادة السياسية وسجل التاريخ المغاربي أن العديد من الزوايا كان نواة لقيام الدول كالدولة السعدية بالمغرب.

(1)نفس المرجع، ص 266.

(2)نور الدين الزاهي، **الزاوية والحزب، الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي**، ط3، إفريقيا الشرق، المغرب، 2011،ص 06.

يمكن تحديد ثلاث عوامل في علاقة الزوايا بالسلطان وتبعيتها له:[1]

العامل الأول متعلق بالامتيازات التي تمنح للزوايا فتتمثل في "ظهائر التوقير والاحترام" التي تتجدد خلال كل تتويج لسلطان جديد، وهي عادة تنص على الإعفاء من الضرائب، وبالمقابل يتوجب على الزوايا أن تخضع لسلطة المخزن الروحية وأن لا تظهر منافستها أو عدائها للحاكم الجديد.

العامل الثاني يتمثل في تزكية الشيخ الجديد للزاوية من طرف أتباع الزاوية، فهذه التزكية لا تتم بصفة قانونية ونهائية إلا بقبول السلطان لهذا الشيخ الجديد، وبالنظر لهذا الموقف نلاحظ أن هذه التزكية بمثابة سلاح للسلطان ضد أطماع وتطاولات الزاوية.

أما **العامل الثالث** والأخير فهو يتعلق بالثروات والموارد التي تستفيد منها الزاوية، فهذه الثروات المادية تبقى دائما شرعية في يد السلطان، ويتعلق الأمر بالزكاة والخراج، فهي ضرائب تؤدى للسلطان الذي له الحق في أن يتنازل عليها لصالح الزوايا.[2]

ولهذا ارتأى "كليفورد غيرتز" إلى التأكيد أن تاريخ المغرب(المغرب الإسلامي) لازمته العلاقة الرهيفة بين سياسة الرجل المنفذ وورع الرجل الصالح، إنها الجهد المتتابع بدون تراجع لأجل إتمام مهر القوة الحربية وفضيلة الولي بدون الوصول لحالة الفرقة.[3] وحسب المؤرخ عبد الله العروي، كثرت الأزمات التي انطبعت بها علاقة المخزن بالزاوية، ورغم ذلك فإن معظم الزوايا ومنذ البداية قبلت الخدمة كتنظيم مخزني، فمعظمها كانت مخزنية، فلم تكن حسبه أبدا قوة سياسية بقدر ما كانت آلية لإدارة السلطة المركزية، فالمخزن عبارة عن زاوية، والزاوية عبارة عن مخزن مصغر يمثل المخزن على المستوى المحلي.[4]

---

(1)عبد اللطيف أكنوش ، **تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب**، إفريقيا الشرق، المغرب، بدون سنة النشر، ص 110.

(2)نفس المرجع.

(3)Clifford Geertz, **Islam observed, religions development in Morocco and Indonesia**, Yale university press, 1968, pp8.

(4) عبد الله العروي،**الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية**، تعريب : محمد حاتمي – محمد جادور،

=

2.تحليل مقارن للواقع التاريخي لمؤسسة الزوايا في الجزائر والمغرب:

1.2. فترة ما قبل الاستعمار - الأيالة العثمانية في الجزائر والأيالة الشريفية في المغرب- :

انقسم المجتمع المغاربي التقليدي إلى قسمين: **المجتمع الحضري والمجتمع الريفي القبلي**، يضم المجتمع الحضري كل الحظائر الكبرى والمتوسطة بالإضافة إلى المناطق القريبة من المركز، وتتميز بانتشار المؤسسات الدينية الحضرية كالمساجد والمدارس القرآنية والكتاتيب ومؤسسات القضاء والإفتاء، وتتميز أيضا هذه الحظائر ومؤسساتها الدينية بتبعيتها المباشرة للحكم المركزي سواء العثماني في الجزائر أو المخزني السلطاني في المغرب، غير أن ما يعطي الخصوصية للأرياف الجزائرية والمغربية هي انتشار الزوايا والطرق الصوفية فيها بكثرة، وهذه المناطق بطبيعة الحال بعيدة عن المركز، وغالبا ما كانت تتمتع بالاستقلالية في تسيير شؤونها الاجتماعية والاقتصادية والدينية وحتى السياسية.

وبحكم المركز الذي يحظى به الدايات والسلاطين الشرفاوية، كان هناك صراع دائم بينهم وبين صلحاء الزوايا من أجل المركز والنفوذ باعتبار أن فئة الصلحاء هم أيضا يتمتعون بقوة العلم وقوة القبائل التي كانت دائما بمثابة السند لهذه الفئة، ولذلك تميزت العلاقة بين الصلحاء والشيوخ مع الحكام بالخضوع تارة والصراع والتنافس والتمرد تارة أخرى. هذا عكس العلماء والفقهاء الموظفون المرتبطين مباشرة بسياسة الحكم المركزي،يمارسون مهامهم تحت وصاية الحكم المركزي، وكانت العلاقة التي تربط بين هذه الفئات والسلطان المركزي العثماني أو المخزني (السعدي والعلوي) علاقة وصاية وخضوع تام.

لم تكن يوما العلاقة بين صلحاء الزوايا والحكام خلال هذه الفترة ثابتة من حيث التعاون، بل إنها كانت متغيرة بحسب قوة الحكم المركزي و وضعية البلاد، و من

=

المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، 2016، ص207.

خلال دراساته حول الزوايا وأدوارها المتعددة الأوجه بين الديني والسياسي والإيديولوجي والاقتصادي، توصل أحد أهم أعلام السوسيولوجيا الكلنيالية "ميشو بلير" إلى أنه في حالة وجود سلطة قوية، ينحصر دور الزوايا في أداء وظيفتها الدينية، أما في ظل حكم عاجز تتموقع داخل المشهد السياسي، وعليه فتاريخ المغرب يتجسد في تناوب روابط التعاون والتنافس بين المخزن والزوايا.

وهذا الأمر ينطبق على وضعية الزوايا في الجزائر، حيث نجد أن شيوخ الزوايا والصلحاء قد وضعت فيهم الثقة التامة من طرف القبائل، حيث أنهم احتفظوا بالاستقلالية طيلة ثلاثة قرون في ظل الحكم العثماني، وهذا بعد فشل هذا الأخير في إخضاعها، فكانت الزوايا والقبائل التابعة لها في المناطق البعيدة والجبال تمثل المناطق السائبة، لا يتدخل في شؤونها السلطان العثماني، بل يتصرف فيها الصالح أوشيخ الزاوية، لأن سلطته ترتكز على الوقار والوازع الديني والأخلاقي، عكس سلطة القياد التي تعتمد على القوة حالها حال السلطة المركزية بالمدينة.[1]

ولكن الظروف التاريخية القاهرة تفرض في كل مرة تحالفات بين الحكم المركزي مع هذه الزوايا، خاصة في ظل محاولات الغزو الأوروبية الأيبيرية (الإسبانية والبرتغالية) المتكررة، لتكون بذلك سلطة الصلحاء أهم السلطات التي اهتم بها واعتمد عليها الدايات في الجزائر والسلاطين المغربية لمواجهة الأطماع الخارجية، واستخدموها أيضا حتى لبسط نفوذهم وللتفاوض مع القبائل السائبة، وخير مثال على ذلك التحالف العثماني الصلحائي ضد الأطماع الإسبانية سنة 1517، حيث قدمت القادرية الدعم للأتراك، وخاصة أن صراعهم ضد الإسبان اتخذ صبغة دينية، من هنا يتضح لنا أن عامل الجهاد ضد العدو أدى دورا إيجابيا في تدعيم فكرة التحالف بين الطرفين، وخاصة أن الأتراك عندما جاؤوا إلى الجزائر جاؤوا كحماة للدين الإسلامي، وقام أيضا في المغرب السلطان عبد الرحمان بالتقرب من كبريات الزوايا لمحاربة التواجد المسيحي في شرق البلاد.

(1)أبو سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي.(1500-1830)**، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989،ج1، ص 210.

غير أن هذه العلاقة تتأزم وتتوتر خاصة مع فساد الحكام، والزوايا تعلن ثورات في العديد من المناسبات على السلطان المركزي بسبب ضلاله أو نقص الاهتمام بهذه المناطق التي تتواجد فيها الزوايا، كما تنقلب هذه العلاقة تارة أخرى لتصبح علاقة خضوع مع سعي الحكم المركزي إخضاعها والتدخل في شؤونها ومصالحها المادية والروحية، وهذا ما قام به السلاطين العلويون في سعيهم لإخضاع الزوايا وصلحائها.

2.2 . الزوايا في الفترة الاستعمارية من الفاعلية إلى الانحصار:

كانت الزوايا مهدا للمقاومات الشعبية الأولى ضد الاستعمار الفرنسي، فمنذ سقوط القوات الرسمية بقيادة الداي على يد الجيوش الفرنسية،أصبحت الزوايا الحامل الأول لمشعل المقاومة والثورات، حيث أن معظم زعماء الثورات ما بعد 1830 كان وراءها شيخ طريقة أو زاوية كالشيخ الحداد والزاوية الرحمانية. ولكن الإدارة الفرنسية اتجهت مباشرة إلى الاهتمام بهذه المؤسسات الدينية، لأنها عرفت منذ البداية أن الزوايا كانت تمثل تهديدا للوجود الفرنسي في الجزائر، وقد اتبعت عدة أساليب من أجل الحد من خطرها، ولكنها في الأخير ركزت على أسلوبين رئيسيين:**الأسلوب الأول** المراقبة والتشدد دون المواجهة، كما فعلت مع الرحمانية والشاذلية والقادرية، و**أسلوب ثاني** هو الاستمالة بالتقرب إلى زعمائها من خلال عرض الوظائف عليهم، ومنحهم الإقطاعيات والأوسمة كما فعلت مع الزوايا والطرق التيجانية والطيبية. ولعل أكبر دليل على هذا الاهتمام الكبير بالزوايا والطرق الصوفية هو الدعم المباشر من طرف الحكومة الفرنسية خلال هذه الفترة بالذات للبحوث المتعلقة بالزوايا والحركة الصوفية وتكرست الجهود بدراستين رائدتين مثلتا نقطة ارتكاز للعديد من البحوث والدراسات في هذا المجال وهما :دراسة كل من لويس رين Louis Rinn تحت عنوان" marabouts et khouanes – المرابطون والإخوان " سنة 1884، ودراسة اوكتاف دوبون و كزافي دوبولاني Octave Dupont et Xavier Coppolani تحت عنوان " confréries religieuses les musulmanes – الطرق الصوفية في الإسلام" سنة 1897.

غير أن بعض الطرق والزوايا اتجهت إلى الانتقائية والإيمان بالخرافات والقدرية، وذلك بالتسليم والخضوع للمستعمر الفرنسي، وربطه بقدر الله ومكتوبه،

وبالتالي ارتأت في الأخير إلى مهادنة ومسالمة المستعمر من أجل الحفاظ على مصالحها ونفوذها الاجتماعي والاقتصادي.[1]

أما في المغرب فقد مرت الزوايا بنفس ظروف نظيراتها في الجزائر خلال الحماية الفرنسية، فأغلب المغاربة وبمختلف شرائحهم الاجتماعية كانوا منضمين إلى الطرق والزوايا حيث كانت تعتبر انعكاسا لهويتهم الشخصية، كما كانت الزوايا بالنسبة إليهم تعبيرا عن خصوصية اجتماعية وإثنية، وأمام هذه الظاهرة انتهجت السلطات الاستعمارية سياسة تميزت بالمراقبة عن بعد، واللعب على خلافات الزوايا والنزاعات القائمة بينها، ثم منح الامتيازات كمنح ظهائر التوقير واستغلال نفوذ شيوخ الزوايا.

فبعد الجهود المتكررة التي قام بها السلاطين العلويون على الزوايا في نهاية القرن التاسع عشر وخصوصا منها ذات النفوذ الواسع مثل الوزانية والناصرية والشرقاوية، وذلك بتبني المخزن لسياسة الاحتواء، وأصبحت بالتالي عبارة عن مؤسسات مخزنية بعد الحد من نفوذها السياسي والديني، مهمتها تمثيل المخزن في مناطق نفوذها وحماية مصالحه والدفاع عنها مقابل تمتعها بامتيازات متنوعة (هبات، عقارات، إعفاءات ضريبية)، ومع هذا الوضع تحول رجال الزوايا من زعماء تصوف إلى إقطاعيين همهم الأساسي هو تأسيس إمارات دينية تضمن الحفاظ على امتيازاتهم وجمع الأموال ومراكمة الثروات.[2] أصبح من الطبيعي إذن أن يبحث بعض شيوخ الزوايا ورجالاتها عن سلطة داعمة أخرى تحافظ على مكتسباتهم، وكان ذلك بانتقالهم من الوصاية المخزنية إلى وصاية وحماية السلطات الفرنسية كما فعل ذلك الوزانيون، فقد أدرك هؤلاء مبكرا ضرورة البحث عن دعامة سياسية قوية لهم في المرحلة الجديدة ضمانا لاستمرارية امتيازاتهم وحفاظا عليها، فرحبوا بالمشروع الاستعماري وبرروه بمختلف الطرق الممكنة وأقنعوا أنصارهم وأتباعهم بإيجابياته ومزاياه.[3]

(1)الطاهر سعود، **الحركات الإسلامية في الجزائر – الجذور التاريخية والفكرية**- ط1، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الإمارات العربية المتحدة، 2012، ص 231.

(2)القاسم الحادك، مرجع سابق، ص 66.

(3)نفس المرجع.

اعتمدت السلطات الفرنسية سياسة تجاه الزوايا والطرق الصوفية في المغرب بشكل كبير على التجارب التي راكمتها من الجزائر، فقد دفع صمود بعض الزوايا وتأطير زعمائها للعديد من الثورات بالجزائر السلطات الاستعمارية إلى خشية من أن تواجه من الزوايا المغربية نفس ما واجهته من نظيراتها في الجزائر.كما اتجهت العديد من الزوايا في المغرب إلى الانتقائية والقدرية والإيمان بالبدع والخرافات، وأصبحت تفسر ظاهرة الاستعمار بأنها ضرب من القدر ولا مجال لمحاربته، الموقف الذي أدى إلى استنكار العديد من الجهات.

وأمام هذا الموقف السلبي لبعض الزوايا تجاه المستعمر، كانت هناك ردود فعل قوية خاصة تلك التي مثلتها الحركة الوطنية في الجزائر والمغرب، ونخص بالذكر الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين في الجزائر بقيادة عبد الحميد ابن باديس، والحركة السلفية الوطنية والإصلاحية التي مثلها علال الفاسي و قدور الورطاسي في المغرب. فهذه الحركات الإصلاحية، ظهرت في هذه الفترة بالذات لمحاربة جبهتين، جبهة الزوايا والطرق الصوفية من جهة وسلطات المستعمر من جهة أخرى، ففي الجزائر لم يتوان الشيخ عبد الحميد ابن باديس في محاربة كل الطرق والوسائل التي كانت تتخذها الطرق والزوايا للإسلام، فالطيب العقبي مثلا والذي هو أحد المؤسسين الأوائل لجمعية العلماء المسلمين والمنشقين عنها بعد ذلك، اتخذ طريقة المجابهة المباشرة مع شيوخ الزوايا والطرق في الجزائر، حيث أعلن ذلك في أحد خطبه عندما قال:"و لن ترضى عنك شيوخ الزوايا والطرق حتى تتبع ملتهم"[1]، وبذلك يكون قد أعلن الحرب على هذه المؤسسات الدينية ذات الامتداد التاريخي والشعبي.

وفي المغرب قام علال الفاسي بإلقاء العديد من الدروس في فاس والتي كان الهدف منها التعرض للزوايا و الطرقية، كما يقوم الورطاسي بتهديد هذه المؤسسات في حوار مباشر له مع احد شيوخ الزوايا، وخاصة بعد خيانة هذه الأخيرة مع شيوخها لثورة

(1)الزبير عروس، **جماعات التيار السلفي في الجزائر، مسارها التاريخي وواقع تجربة تنظيماتها المسلحة**، مخبر الدين والمجتمع، غير منشورة، ص 25.

الريف التي خاضها عبد الكريم ضد الجيوش الاستعمارية في شمال المغرب، وانحراف بعض الزوايا عن تعاليم الإسلام الصحيحة، وأصبحت بذلك وسيلة استخدمها المستعمر لتثبيت وجوده في المغرب.

كما تميزت هذه الفترة بمواجهة الحركات الإصلاحية في الجزائر والحركة السلفية الوطنية في المغرب لسياسات ودسائس السلطات الفرنسية، إذ مباشرة بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 وحمايتها للمغرب سنة1912، بدأت بالعدوان على الهوية المغاربية".[1] بالتعرض لمؤسساتها الثقافية والدينية والتعليمية.

والملاحظ أن بعض اتجاهات الحركة الوطنية والنخبة في هذين البلدين منبعها الدين الإسلامي ذو التوجه المذهبي الإصلاحي والسلفي، برزت في ظل ظروف استعمارية قاهرة بدأت فيها الزعامات الدينية التقليدية بالتراجع ونقص في الفاعلية على مستوى الحقلين الديني والسياسي ما مكن المستعمر من تطوير استراتيجياته الإدماجية تدريجيا بهدف القضاء على الخصوصية الثقافية المغاربية.

3. الزاوية في دولة ما بعد الاستقلال وقوة حضور الدولة:

1.3 مؤسسة الزاوية ومتغيرات الدولة الحديثة في الجزائر:

الزاوية في الجزائر وبحكم ارتباطها الوثيق بالبنية الاجتماعية خصوصا العائلة والقبيلة،اكتسب مشروعية أقرب إلى المشروعية الثورية التي اعتنقتها النخبة السياسية في مرحلة الستينات، حافظت على مكونات الشخصية والهوية الجزائرية، وهذا ما أكد عليه عبد الله العروي حيث أن الزوايا في نظره أدت دورا هاما في التشكيلة الاجتماعية والتعليمية والتربوية والتضامنية كمؤسسة فقهية وعقائدية تقوم بتعليم اللغة العربية وعلوم الدين والبعض من الحرف والصناعات، كما تعتبر الفقه المالكي من الممارسات

(1)أمحمد مالكي، **الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994، ص 158.

الدينية الرسمية لها.[1] وبالتالي فالزوايا لم تكن يوما خارجة عن نطاق النسيج الاجتماعي المغاربي.

كان موقف النخبة الحاكمة الجديدة في الجزائر من الدين موقفا عقلانيا تميز بالتعامل مع موضوع الدين الإسلامي بموضوعية لما لهذا الموروث الثقافي من ثقل تاريخي بالغ الأهمية، غير أن تعاملها مع العائلات المرابطية التقليدية و مؤسسات الزوايا والتي كانت وجها من أوجه الإسلام التقليدي الموروث، كان عنيفا و معاديا، بسبب الموقف السلبي لها فترة السيطرة الاستعمارية.

بدت نظرة قادة الثورة و الممثلين الجدد للسلطة للدولة الجزائرية الحديثة إلى مؤسسات الزوايا بمثابة مؤسسات ذات نزعة دينية تقليدية، و يعتبرونها معيقة لمسيرة الجزائر المستقلة نحو الاشتراكية، و أصبحت بذلك هذه المرحلة الجديدة بمثابة الثأر من التاريخ، حيث قامت السلطة الجديدة بتأميمات شاملة للزوايا و لممتلكات المرابطين ووضعتها تحت طائلة مشروع الإصلاح الزراعي. [2] و بالتالي سلكت الدولة تقريبا نهج الحركة الإصلاحية التي كانت السابقة لمحاربة الطرقية منذ عشرينيات القرن الماضي.

وعليه كان حال الزوايا أنها تعرضت بعد الاستقلال لفترة طويلة من الإهمال والتهميش، والسبب في ذلك يعود إلى التحالف والتحامل الذي كان عليها بسبب اتهامها بمهادنة المستعمر، إضافة إلى ذلك أن معظم وزراء الشؤون الدينية تلقوا تعليمهم من طرف جمعية العلماء المسلمين أمثال احمد توفيق المدني الذي كان أول وزير للأوقاف. هذا بعد أن وقع الاختيار على الفكر الباديسي الإصلاحي في المؤسسات الدينية الرسمية للدولة المستقلة.

(1) Mohamed Elayadi et d'autres. **L'islam au quotidien-Enquête sur les valeurs et les pratiques religieuses au Maroc**, édition prologues, CASA BLANCA, 2007.pp 86-87.

(2) Gilles Kepel. Djhad. **Expansion et déclin de l'islamisme**. Gallimard, Paris, 2003, p87.

دفعت المكانة المركزية التي يحتلها الدين الإسلامي داخل المجتمع الجزائري، السلطة الحاكمة بترجمة هذه المكانة مباشرة في دستورها السياسي سنة 1963، خطوة منهجية وموضوعية سمحت للدين الإسلامي للولوج في الإيديولوجيا السياسية للدولة المستقلة، هذه الأخيرة مكنت السلطة الحاكمة باكتساب الشرعية الدينية التي تضاف إلى الشرعية الثورية، كشرعيتين كفيلتين بتحقيق حد أقصى من الإجماع الوطني.

و في هذا الصدد يرى محمد أركون أن السلطة الجزائرية الجديدة عملت بشكل لا يقل قوة، التأكيد على انتمائها للإيديولوجيا الإسلامية (أكثر بكثير من انتمائها للإسلام)، ويمكن تفسير هذا الموقف بمثابة رد فعل محتوم ضد الفترة الاستعمارية أكثر مما هو عبارة عن تحمل لمسؤولية الواقع الجزائري للنواحي الاجتماعية و الثقافية و التاريخية بشكل جاد و متوازن.[1]

غير أن موقف السلطة من الدين الإسلامي لم يلقى قبول جميع التيارات خصوصا تلك المتشبعة بالفكر الغربي الحداثي العلماني، ولقد كان موقف أحد أبرز المثقفين المتأثرين بالموروث الثقافي الغربي، مصطفى الأشرف مناهضا، إذ تصدى وبشدة لفكرة تبني الدين ومؤسساته بجميع أشكالها في برنامج الجبهة عشية مؤتمر طرابلس معتبرا بأن الإسلام يحمل في ذاته ثقل القيم الخاصة بحضارة ريفية قديمة و يمكن أن يلعب دمجه في الإيديولوجية السياسية دور الكابح لتحديث البلد، و أن القوى المحافظة سوف تستند إلى الدين لتأييد عادات رجعية بما يخص العائلة و وضع المرأة و العلاقات في المجتمع[2]

ورغم التهميش والاقصاء الذي تعرضت إليه الزوايا، إلا أنها عرفت عودة إلى الفاعلية والنشاط بعد تنامي المد الإسلاموي كحقل ديني مضاد، حيث عقد في ماي 1991 أول ندوة وطنية حول الزوايا، أي مباشرة بعد فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ

(1) محمد أركون، **العلمنة و الدين، الإسلام المسيحية الغرب**، دار الساقي،ط3، بيروت، 1996، ص 19.

(2) محمد حربي. **جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع**، تر: كميل قيصر داغر، مؤسسة الأبحاث العربية، ش.م.م، بيروت،1983،273ص .

بالانتخابات التشريعية، وعليه كان الهدف من لجوء الدولة إلى الزوايا والاستنجاد بها هو الحد من الإسلاموية.

2.3 . الملكية المغربية وازدواجية التعامل مع المؤسسات التقليدية:

اختلفت طريقة تعامل الدولة المغربية الحديثة مع الزوايا حسب طبيعة العلاقة وموازين القوى التي تفرضها الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المغربي، غير أن الزوايا المغربية لم تواجه مصير العزل والتهميش الذي واجهته نظيراتها في الجزائر بعد الاستقلال،إذ تعدد المشهد الصوفي الحديث مكونا من عدد من الزوايا، البوتشيشية والكتانية والعلوية والريسونية، وتختلف هذه المكونات باختلاف توجهاتها السياسية وطرقها التربوية ومرجعياتها العقدية وأنماطها التربوية.

غير أن الاختيار الرسمي للدولة بعد الاستقلال وقع مباشرة على التيار المعادي للزوايا والطرقية و هو الإطار السلفي السائد بقيادة علال الفاسي زعيم الحركة الوطنية المغربية، لما له من صدى واسع في الأوساط الثقافية الدينية و السياسية و كطريقة لإضفاء الشرعية على التغيرات الممكنة في المغرب المعاصر.[1]

إلا أن الوضع لم ينقص من فاعلية بعض الزوايا في الحقل السياسي المغربي كالزاوية الكتانية، وقد خرجت هذه النوايا إلى الملأ في سنة 1984 عندما سعت في الانتخابات البرلمانية في نفس السنة، وقامت بتقديم مرشحين لها، وقد اتبعت الزاوية الريسونية نفس المنهج عندما قدمت مرشحين لها في انتخابات 1997م.

إضافة إلى الانتشار الواسع للزاوية البوتشيشية داخل المغرب وخارجه، ويمكن رصد هذا المد في عدد من المؤسسات والجامعات المغربية من خلال إشراف بعض إطارات الزاوية على وحدات البحث والتكوين في التصوف، كما هو الشأن لوحدة

(1) فخر الدين ميهوبي، **إشكالية بناء الدولة في المغرب العربي، دراسة في تطور دولة ما بعد الاستعمار**، ط1، مكتبة الوفاء القانونية، الإسكندرية، 2014، ص ص105-106.

الخطاب الصوفي في كلية الآداب بالرباط التي يؤطرها مريد الزاوية المفكر الدكتور طه عبد الرحمان.

وقد توجهت الدولة في المغرب إلى تقديم دعمها الكبير للزوايا وللحركة الصوفية وذلك عبر تجديد ظهائر التوقير للشرفاء، وإصلاح وإعادة هيكلة الأضرحة، بالإضافة إلى التخليد الرسمي لبعض المواسم الدينية[1]. وقد تكرس هذا التوجه الداعم للتيار الصوفي بعد تفجيرات 16 ماي 2003. وتعاظم قوة التيار السلفي الوهابي، وبموجبه تم تعيين أحد أبناء ومريدي الزاوية البوتشيشية على رأس وزارة الأوقاف والشؤون الدينية الدكتور أحمد توفيق.[2]

ومع السياسة الدينية المغربية المتبعة القاضية بإعادة إحياء المقوم الصوفي وقد ظهر ذلك جليا عبر الاهتمام المتزايد بالزوايا والإسلام الصوفي. وتشكل رسالة الملك محمد السادس الموجهة إلى المشاركين في اللقاء الأول العالمي للمنتسبين إلى التصوف المعروف بسيدي شيكر، والمنعقد في سبتمبر 2004 بمراكش حدثا بارزا وانطلاق رسمي لانخراط الزوايا والصوفية في مجال التأطير الديني[3].

إن التحول الحاصل في العلاقة بين الديني و السياسي في موروث الدولة الناتجة عن مرحلة الحماية، أنتج علاقة جديدة بين الدولة و القوى الدينية التي تبناها و كرسها النظام السياسي المغربي بعد الاستقلال.

ورغم الاهتمام بالزوايا والطرق من طرف الملكية المغربية إلا أنه في الواقع الزوايا والعلماء و القبائل كلها فقدت الاستقلالية و المكانة الاجتماعية التاريخية، وتمظهرت العلاقة بين الديني و السياسي طول فترة الحماية بإخضاع الشأن الديني للحكم الزمني للدولة، و قد ورث النظام السياسي للمغرب المستقل هذا التقليد أين

(1)رشيد الأركو، **الزوايا المغربية في الفترة المعاصرة وعلاقتها بالدولة: زاوية الطريقة القادرية البودشيشية أنموذجا**، مجلة جيل للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العام السادس، العدد 54، المغرب، يونيو 2019،ص 136.

(2)نفس المرجع.

(3)أمحمد جبرون، **إشكالية الوظيفة الدينية في الدول المعاصرة، قراءة في تجربة تأهيل الحقل الديني بالمغرب**، مجلة الدراسات المستقبلية، مراصد 4، الإسكندرية، 2011، ص ص 32- 33.

بلور فلسفته الخاصة بعلاقته مع الموروث الديني بإخضاعه لسيادته. كما أن التقليد الملكي المغربي لم ينتهج الطرق والوسائل العدائية المباشرة تجاه رجال الدين و العلماء، و لهذا اكتفت الدولة بالمراقبة، وكذلك إتباع سياسة دينية تتماشى مع التغيرات الاجتماعية الممكنة، و يسهر على تطبيق هذه السياسة وزارة الحبوس و الشؤون الإسلامية. وذلك بمراقبة العبادة وأماكنها، المراقبة التي من خلالها آلت الدولة تدريجيا إلي مأسسة (Institutionnalisation) الدين واحتكاره، ووضعه في إطار لا يمكن تصوره خارج إطارها.

إن الجديد في السياسة الدينية للدولة المستقلة في الجزائر والمغرب هو تعاملها مع القوى الدينية الموجودة بشكل عقلاني، و إعادة تحديث مجال تسيير الشأن الديني، والإرادة الملحة في ممارسة خيارات الدولة فيه، و ذلك بالتدخل مباشرة في تنظيم و تأطير الممارسات الدينية بمختلف أشكالها.

و ما يمكن ملاحظته من خلال العقود الماضية (الستينات، السبعينات، الثمانينات والتسعينات) من القرن الماضي هو ظهور طرق جديدة في الفكر و الممارسة الدينية والسياسية للدولة الحديثة، و يمكن تحديد خاصيتين: الأولى أنه رغم المطالبة المستمرة للفصل بين الشأنين الديني و السياسي إلا أن مكانة الدولة بقيت مركزية و لا يمكن مناقشتها في السياسة الدينية العامة، أما الخاصية الثانية التسيير المنظم و المراقب للشأن الديني لإعطاء أكثر قوة و تناغم بين الدولة و رجال الدين القائمين على المؤسسات الدينية.

خاتمة:

تشكلت البنية التاريخية للمجتمع المغاربي حول العلاقة الثنائية القائمة بين مجموع الفاعلين الدينيين و السياسيين، وقد أبرز التاريخ المغاربي خصوصا مع بداية القرن 15م الدور المستحق في الماضي للزوايا كوسيط في المجال الديني السياسي، و لكن مساهمة هذه الزوايا في هذا الحقل تغير تدريجيا نتيجة التغير الحاصل على البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسة والدينية، واقع جديد أخضع هذه المؤسسات لمنطق وسياسة الدولة الحديثة المعقلنة، القاضية بتنظيم و مراقبة الحقل الديني من

مؤسسات وفاعلين دينيين، و كان لتوظيف رجال الدين و العلماء و القائمين على شؤون العبادة الدور في تأسيس علاقة جديدة بين الدولة و فاعلي هذا الحقل، الذين أصبحوا في إطار الدولة الوطنية مجرد مسيرين و قائمين على شؤون العبادة تحت رعاية وزارة الشؤون الدينية.

و لم تتمكن الزوايا في ظل الدولة المعاصرة من المحافظة على حضورها إلا بفضل انخراطها في سياسات السلطة المركزية خصوصا في مواجهة التيارات الدينية المناهضة، لتصبح بذلك الزوايا مجرد مؤسسات دينية تنخرط في نشر القيم التي تطالب بها الدولة.

المراجع:

المراجع باللغة العربية:

1: الكتب

- أبو سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي،(1500-1830)**، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989،ج1.
- أمحمد مالكي، **الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1994.
- الطاهر سعود، **الحركات الإسلامية في الجزائر – الجذور التاريخية والفكرية**- ط1، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الإمارات العربية المتحدة، 2012.
- عبد اللطيف أكنوش ، **تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب**، إفريقيا الشرق، المغرب، بدون سنة النشر.
- عبد الله العروي، **الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية**، تعريب : محمد حاتمي – محمد جادور، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، 2016.
- فخر الدين ميهوبي، **إشكالية بناء الدولة في المغرب العربي، دراسة في تطور دولة ما بعد الاستعمار**، ط1، مكتبة الوفاء القانونية، الإسكندرية، 2014.
- محمد أركون، **العلمنة و الدين، الإسلام المسيحية الغرب**، دار الساقي،ط3، بيروت، 1996.

- محمد المنصور، **المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين (1792-1822)**، تر، محمد حبيدة، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2006.
- محمد حربي، **جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع**، تر: كميل قيصر داغر، مؤسسة الأبحاث العربية، ش.م.م، بيروت،1983.
- نور الدين الزاهي، **الزاوية والحزب، الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي**، ط3، إفريقيا الشرق، المغرب، 2011.

2. المقالات:

-القاسم الحادك، **الزوايا والطرق الصوفية في المغرب**، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، ع1، جامعة الوادي، سبتمبر 2013.
- أمحمد جبرون، **إشكالية الوظيفة الدينية في الدول المعاصرة، قراءة في تجربة تأهيل الحقل الديني بالمغرب**، مجلة الدراسات المستقبلية، مراصد 4، الإسكندرية، 2011.
- رشيد الأركو، **الزوايا المغربية في الفترة المعاصرة وعلاقتها بالدولة: زاوية الطريقة القادرية البودشيشية أنموذجا**، مجلة جيل للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العام السادس، العدد 54، المغرب، يونيو 2019.

3. وثائق غير منشورة:

- الزبير عروس، **جماعات التيار السلفي في الجزائر، مسارها التاريخي وواقع تجربة تنظيماتها المسلحة**، مخبر الدين والمجتمع، غير منشورة.

المراجع باللغة الأجنبية:.

- Clifford Geertz, **Islam observed, religions development in Morocco and Indonesia**, Yale university press, 1968.
- Gilles Kepel. Djhad. **Expansion et déclin de l'islamisme**. Gallimard, Paris, 2003.
- Mohamed Elayadi et d'autres. **L'islam au quotidien-Enquête sur les valeurs et les pratiques religieuses au Maroc**, édition prologues, CASA BLANCA, 2007.